مقدمـــة

الحمد لله الذي اختص بالبقاء والدوام، وكتب على جميع الخليقة الفناء والزوال، والصلاة والسلام على الهادي البشير، والسراج المنير، وعلى آله وأصحابه خير صحب وآل... أما بعد:

فإن الله عز وجل خلق الخليقة وجعل الموت والحياة للابتلاء والامتحان، كما قال عز وجل ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (١).

وحكم بأن مصير الخلائق كلها ومردها إليه سبحانه ليجازي كلاً بما عمل كما قال عز وجل: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ (٢).

وجعل هذه الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، يتزود فيها المؤمن العمل الصالح للدار الآخرة: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (٣)، وجعل الدار الآخرة دار الجزاء والثواب أو العقاب، وأرسل عز وجل الرسل، وأنزل عليهم الكتب، إرشاداً للخلق وإقامة للحجة عليهم، كما قال عز وجل: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (٤).

ولم يلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى إلا بعد أن بلغ أمته البلاغ المبين، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها سواء لا يزيغ عنها

---

(1) سورة الملك، آية: ٢.

(2) سورة البقرة، آية: ٢٨١.

(3) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ ــ ٨٩.

(4) سورة النساء، آية: ١٦٥.

إلا هالك وقد أعلمه ربه - بأبي هو وأمي - صلوات الله وسلامه عليه بدنوّ أجله ليكثر من العبادة، وتسبيح الله، وتحميده، واستغفاره استعداداً للقاء ربه - وهو الذي غُفر لـــه ما تقدم من ذنبه وما تأخر - فكان صلى الله عليه وسلم أكثر مـــا يكون اجتهاداً في أمر الآخرة استجابة لأمر الله عز وجل لـــه بقوله: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ ولنا فيه صلوات الله وسلامه عليه الأسوة والقدوة. فينبغي للمسلم أن يستعد لهذا اللقاء العظيم، ويزداد استعداداً كلما تقدم به العمر ليتدارك بقية عمره ويعوض عما فاته.

فتدبر أخي الكريم هذه السورة العظيمة التي آذن الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم بدنو أجله ليتهيأ ويستعد للقاء ربه، وتدبر كلام أهل العلم عليها الذي لخصته في هذا الكتاب وسميته «تدارك بقية العمر في تدبر سورة النصر» عسى الله أن ينفعني وإياك بذلك، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي ووالدي إنه جواد كريم ملك بر رؤوف رحيم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة النصر، وتسمى سورة « التوديع »[١]

قال الله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾.

- **وقت نزولها:**

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قال: صدقت »[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «نزلت هذه السورة: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع[٣]، فأمر براحلته القصواء فرُحلت، ثم قام فخطب الناس..» فذكر خطبته المشهورة [٤].

---

(١) روي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر « الكشاف » ١٤٠/٤، «الجامع لأحكام القرآن» ٢٢٩/٢٠.

(٢) أخرجه النسائي فيما ذكر ابن حجر في «فتح الباري» ٧٣٤/٨، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٥٣١/٨.

وقد خرج البخاري في التفسير ٤٦٥٤ عن «البراء أن آخر سورة نزلت براءة». والمراد به والله أعلم بعضها، وأن آخر سورة نزلت كاملة هي النصر. انظر «فتح الباري » ٣١٦/٨، ٧٣٤.

(٣) وروي أنها لما نزلت بكى عمر والعباس فقيل لهما: إن هذا يوم فرح، فقالوا: بل فيه نعي النبي صلى الله عليه وسلم. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢٣٢/٢٠.

(٤) أخرجه البيهقي في الحج، باب خطبة الإمام بمنى أوسط أيام التشريق ١٥٢/٥، وذكره ابن =

- **موضوعها:**

الإيذان بقرب وفاته صلى الله عليه وسلم، وحثه على لزوم التسبيح بحمد الله، واستغفاره.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة وقال: « إنه قد نعيت إلي نفسي » فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي» فضحكت»[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال:لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال إنه من علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم. فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه لـــه قال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ، فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ فقال

= كثير في « تفسيره » ٥٢٩/٨.

(١) أخرجه البيهقي – فيما ذكر ابن كثير في « تفسيره » ٥٢٩/٨. وأخرجه أحمد ٢١٧/١، ٣٤٤، ٣٥٦ مختصراً دون ذكر فاطمة، وقال أحمد شاكر في تخـــريج المـــسند ١٨٧٣: «إسناده صحيح ». وأخرج ابن أبي حاتم في « تفسيره» ٣٤٧٢/١٠ – الأثـــر ١٩٥٢١ من حديث أم حبيبة رضي الله عنها قصة بكاء فاطمة... الخ. وانظر « تفسير ابن كثير » ٥٣٢/٨.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا أعلم منها إلا ما تقول»[١].

قال ابن كثير [٢]: «فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره؛ يعني: ونصلي له، ونستغفره معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ثماني ركعات. وفي سنن أبي داود: « أنه صلى الله عليه وسلم كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين»[٣].

وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم فتح المدائن».

قال ابن كثير: «وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله عنهما من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه الكريمة: واعلم أنك إذا فتحت مكة - وهي قريتك التي أخرجتك - ودخل الناس في دين الله أفواجاً فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾».

وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله. فعلم أبو بكر رضي الله عنه

---

(1) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ ٤٩٦٩، ٤٩٧٠، والترمذي في التفسير ٣٣٦٢، والطبري في « جامع البيان » ٢١٥/٣٠ ــ ٢١٦

(2) في « تفسيره » ٥٣٢/٨.

(3) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٥٧، ومسلم في الحيض ٣٣٦، وأبو داود في الصلاة ١٢٩٠، ١٢٩١، والنسائي في الطهارة ٢٢٥، والترمذي في الصلاة ٤٧٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٢٣ عن أم هانئ: «أنه صلى الله عليه وسلم عام الفتح قام فصلى ثمان ركعات ... قالت: وذاك ضحى».

فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا وأموالنا» [1].

وهكذا روي عن جميع المفسرين من التابعين ومن بعدهم[2] أنها في الإخبار بدنو أجله صلى الله عليه وسلم والاستعداد للقاء ربه.

- **معاني المفردات والجمل:**

قولـــه تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ (إذا) ظرفية شرطية غير عاملة قال الزمخشري [3] : «منصوب بسبح وهو لما يستقبل. قال: والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة » [4].

و « جاء » فعل ماضٍ مبني على الفتح، وهو فعل الشرط.

قولـــه: ﴿نصر الله﴾ عونه لك على الأعداء من كفار قريش وغيرهم.

قولـــه: ﴿والفتح﴾ فتح مكة.

قال ابن كثير [5]: «والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون إن ظهر على قومه، فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً».

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٥٩، ٣٦٦٠ - من حديث ابن المعلى عن أبيه وقال: «حديث حسن غريب» ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح». وانظر «الكشاف » ٤/٢٤٠.

(٢) انظر « جامع البيان » ٣٠/٢١٥ ــ ٢١٦.

(٣) في « الكشاف » ٤/٢٣٩.

(٤) ويحتمل كونها للماضي، بمعنى: إذ قد جاء، وعليه تكون متعلقة بمقدر ككمل الأمر أو أتم النعمة على العباد أو نحو ذلك لا بسبح. انظر «روح المعاني» ٣٠/٢٥٦.

(٥) في « تفسيره » ٨/٥٣٠. وقيل المراد فتح مكة وغيره من الفتوح.

وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، وحين دخلها صلى الله عليه وسلم وقف على باب الكعبة ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» [١].

قولـــه تعالى: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾.

قولـــه ﴿ورأيت﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.

و ﴿الناس﴾ البشر، بنو آدم من العرب وغيرهم.

قولـــه: ﴿يدخلون في دين الله﴾ يدخلون في محل نصب على الحال، على اعتبار أن (رأيت)، بصرية أو هي مفعول ثان على اعتبار (رأيت) علمية [٢].

ومعنى ﴿يدخلون في دين الله﴾ أي: يسلمون، فيدخلون في دين الله (الإسلام) الذي لا يقبل الله الآن من أحد سواه، قال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [٣]، وقال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [٤].

قولـــه: ﴿أفواجا﴾ جمع فوج، والفوج الجماعة، أي جماعات.

عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الأحياء تتلوم [٥]

---

(١) أخرجه البخاري في العمرة ١٧٩٧، ومسلم في الحج ١٣٤٤ – من حديث ابـــن عمـــر مطولاً، وانظر «الكشاف» ٢٣٩/٤.

(2) انظر « الكشاف » ٢٣٩/٤.

(3) سورة آل عمران، آية: ٨٥.

(4) سورة آل عمران، آية: ١٩.

(5) تتلوم، أي: تنتظر. انظر « لسان العرب » مادة « لوم ».

بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم، فهو نبي)) [1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة إذ قال: ((الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، جاء أهل اليمن. قيل يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال قوم رقيقة قلوبهم، ليِّنة طباعهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية)) [2]. وروي زيادة ((سخية قلوبهم عظيمة خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً)) [3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية)) [4].

وقال ابن كثير [5]: ((فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استو سقت [6] جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة)).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم فقيل لـــه: ما يبكيك؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون من دين الله أفواجاً)) [7].

والمعنى: إذا أتم الله لك النصر على الأعداء وفتح مكة ودخل الناس في دين

(1) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٠٢، والنسائي في الأذان ٦٣٦.

(2) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١٥/٣٠. وانظر «تفسير ابن كثير» ٥٣١/٨.

(3) ذكرها القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٣٠/٢٠.

(4) أخرجه البخاري في الجهاد، فضل الجهاد والسير ٢٥٧٥، ومـــسلم في الحـــج ١٣٥٣، وأبوداود في المناسك ٢٤٨٠، والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.

(5) في «تفسيره» ٥٣٣/٨، وانظر «الكشاف» ٢٣٩/٤، «الجامع لأحكام القرآن»٢٣٠/٢٠.

(6) أي: امتلأت إيماناً، انظر: «لسان العرب» مادة «وسق».

(7) أخرجه أحمد ٣٤٣/٣، وانظر «الكشاف» ٢٣٩/٤.

الله جماعات جماعات فسبح بحمد ربك الخ. ويؤيد هذا ظاهر السياق، وإجراء «إذا» على معناها للاستقبال ويكون في هذا البشارة بحصول ذلك، وذلك علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، ويكون نزول السورة قبل فتح مكة.

ويحتمل أن المعنى: قد جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً. ويؤيد هذا ما جاء في أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع، وفتح مكة قبل ذلك بسنتين تقريباً، ويكون في ذلك الامتنان عليه صلى الله عليه وسلم بما تم من النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً [1].

قولـــه تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾.

قولـــه (فسبح) هذا أمر، والأمر في الأصل للوجوب.

والتسبيح: هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين.

وقولـــه ﴿بحمد ربك﴾.

أي: متلبساً بحمده، أي: حامداً لـــه قارناً بين تسبيحه عز وجل وحمده، بقولك: ((سبحان الله وبحمده)) ((سبحانك ربنا وبحمدك)) ونحو ذلك، وبما هو أعم من ذلك، بذكره وشكره عز وجل، وعبادته والصلاة لـــه وغير ذلك، ولهذا لما فتح صلى الله عليه وسلم الكعبة صلى ثماني ركعات [2].

واستغفره أي: سله واطلب منه المغفرة.

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنه في المناجاة: ((أن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه (أي ستره ورحمته) فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر يوم كذا وكذا حين فعلت كذا وكذا؟ فيقول: أي رب نعم. فيقول الله عز

(1) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ٢٣٠/٢٠.

(2) انظر «الكشاف» ٢٣٩/٤.

وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم)) [1].

وقَرَن التسبيح والتحميد باسم الرب وصفة الربوبية تذكيراً بنعمه عز وجل، وهو أنه هو المربي بنعمه.

قولـــه: ﴿إنه كان تواباً﴾.

كان: مسلوبة الزمان، أي: كان ومازال سبحانه وتعالى تواباً.

و﴿تواباً﴾: اسم من أسماء الله عز وجل على وزن فعّال، صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على أنه عز وجل من صفته التوبة الواسعة الكثيرة العظيمة، فهو كثير التوفيق لعباده للتوبة، كثير القبول لتوبة من تاب منهم.

وتوبة الله على العبد تنقسم إلى قسمين: توفيقه عز وجل للعبد أن يتوب، كما قال عز وجل عن الثلاثة الذين خلفوا ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ [2] أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا، والقسم الثاني. قبولـــه توبة عبده إذا تاب، كما قال عز وجل: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ [3].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إذ أنزلت عليه سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إلا يقول: فيها: ((سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)) [4].

وعنها قالت: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجـــه في المقدمـــة ١٨٣، وأحمد ٢/٧٤.

(2) سورة التوبة، آية: ١١٨.

(3) سورة الشورى، آية: ٢٥.

(4) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ٤٩٦٧، ومـــسلم في الصلاة ٤٨٤.

وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن »[١].

وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر في آخر أمره من قول «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه» وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾»[٢].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت يا رسول الله، إنك تكثر من «سبحان الله وبحمده» لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: «سبحان الله وبحمده»؟ قال: إني أمرت بها، فقال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إلى آخر السورة»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قال: نعيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه حين أنزلت، فأخذ

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ ٤٩٦٨، ومسلم في الصلاة، ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأبوداود في الصلاة - الدعاء في الركوع والسجود ٨٧٧، والنسائي في التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة - التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٩، وأحمد ٤٣/٦، ٤٩، ١٩٠. ومعنى «يتأول القرآن» أي: يرى أن ذلك معنى قولـــه ﴿فسبح بحمد ربك﴾ وعملا بمقتضاه.

(2) أخرجه مسلم في الصلاة - ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأحمد ٣٥/٦.

(3) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٠//٢١٦.

في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة..)) [1].

(1) سبق تخريجه ص ١٩، وانظر «تفسير ابن كثير» ٥٣٢/٨.

الفوائد والأحكام:

١ــ البشارة بنصر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه. وقد وقع هذا المبشر به [1].

٢ــ تحقيق نصر الله عز وجل للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين وتمكينهم من فتح مكة وغيرها لقوله ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قال بعضهم: المعنى: قد جاء نصر الله والفتح.

٣ــ دخول الناس في دين الله أفواجاً بعد نصر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وفتح مكة، بخلاف ما كان عليه الأمر قبل الفتح، ولهذا قال عز وجل: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ [2].

٤ــ امتنان الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بنصره لهم، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وأن ذلك من نعم الله تعالى عليهم الموجبة لشكره، ولهذا قال بعده ﴿فسبح بحمد ربك﴾.

٥ــ أن النصر بيد الله عز وجل لقوله ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ كما قال تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ [3]. وقال تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [1]، وقال

---

(1) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٦٨٢/٧.

(2) سورة الحديد، آية: ١٠.

(3) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

تعالى: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ [٣].

٦ــ الأمر بشكر الله على نعمة النصر، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، لقوله ﴿فسبح بحمد ربك﴾ [٤].

٧ــ وجوب تنزيه الله عز وجل عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين، مقروناً ذلك بحمده عز وجل لقوله ﴿فسبح بحمد ربك﴾.

٨ــ أن لله عز وجل الكمال المطلق من جميع الوجوه، والحمد المطلق، فهو المنزه عن جميع النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين، وهو المحمود في جميع الأحوال وعلى كل حال لقوله ﴿فسبح بحمد ربك﴾.

٩ــ التذكير بنعم الله على العباد التي لا تحصى، من نعمة النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، لقوله ﴿بحمد ربك﴾ فَقَرْنُ الحمد باسم الرب ووصف الربوبية فيه تذكير بنعمه عز وجل كما قال عز وجل ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [٥]، ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [٦].

١٠ــ أمر الله عز وجل للرسول صلى الله عليه وسلم بالاستغفار وهو أمر له صلى الله عليه وسلم ولأمته ممن يصلح له الخطاب لقوله

---

(1) سورة محمد، آية: ٧.

(2) سورة الروم، آية ٤٧.

(3) سورة الحج، آية: ٤٠.

(4) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٦٨٢/٧.

(5) سورة إبراهيم، آية: ٣٤، وسورة النحل، آية: ١٨.

(6) سورة النحل، آية: ٥٣.

﴿واستغفره﴾.

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره في كل يوم مائة مرة، أو أكثر من مائة مرة»(١).

وكان يقول صلى الله عليه وسلم: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٢).

وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: «اللهم اغفر خطئي وعمدي، وجدّي وهزلي، وإسرافي في أمري، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»(٣).

وليس في أمره عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار ما يلزم منه وقوع الذنب منه صلى الله عليه وسلم مع أنه صلى الله عليه وسلم وكذا غيره من الأنبياء معصومون من الخطأ في تبليغ ما أرسلوا به، ومن الوقوع في الكبائر، أما الصغائر فقد تقع منهم على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لكنهم لا يقرون عليها، بل

---

(1) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة١٥١٥، وأحمد ٢١١/٤، ٢٦٠ ـــ من حديث الأغر المزني رضي الله عنه. وأخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٨١٥ ـــ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦ ـــ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٩٨، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧١٩ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

سرعان ما يتوبون منها [1].

١١ــ الإشارة إلى أن النصر يستمر للدين، ويزداد عند شكر الله بالتسبيح بحمده واستغفاره، كما قال عز وجل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[2]. ولم يزل نصر الله لدينه في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ومن بعدهم لما كانت الأمة شاكرة لله عز وجل، مسبحة بحمده مستغفرة، قائمة بأمره متمسكة بحبله، ولما حدث في الأمة ما حدث من المخالفة لأمر الله أصابها ما أصابها من الضعف والاختلاف والتفرق، ووعد الله بالنصر ثابت لا يتخلف. كما قال عز وجل ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ [3].

١٢ــ وجوب شكر الله على نعمة النصر على الأعداء والفتح للمسلمين وعلى كل نعمة من نعمه عز وجل بتسبيحه وتحميده واستغفاره والتوبة إليه، لقوله: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره﴾.

١٣ــ مشروعية سجدة ا لشكر، وقول «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي» في الركوع والسجود لقوله ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره﴾.

١٤ــ وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي. يتأول القرآن» [4].

١٥ــ الإشارة إلى قرب دنو أجله صلى الله عليه وسلم، وحثه صلى الله عليه وسلم

---

(1) انظر «مجموع الفتاوى» ٣١٩/٤، ٢٩٣/١٠ ــ ٣١٣، ١٥٠/١٥، «الرسل والرسالات» للأشقر ص١٠٧ ــ ١١١.

(2) سورة إبراهيم، آية: ٧.

(3) سورة الروم، آية: ٤٧.

(4) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٦٨٢/٧ ــ ٦٨٣.

على ختام عمره بالتسبيح بحمد الله واستغفاره، ليستعد ويتهيأ للقاء ربه [١].

١٦ــ فضل التسبيح والتحميد والاستغفار، لأن الله أمر بذلك في ختام الأعمار، كما في هذه السورة، وأمر به في ختام الأعمال، كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك.

١٧ــ وجوب الاستعداد للقاء الله عز وجل، والانتقال من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية، كما قال عز وجل: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [٢]. أي: لهي الحياة الحقيقية، فيجب على كل إنسان الاستعداد لهذا اللقاء العظيم، ولذلك الانتقال، وأن يزداد في الاستعداد لذلك كلما تقدم به العمر، فيكثر من التسبيح بحمد الله واستغفاره فإن التسبيح والتحميد والاستغفار ختام الأعمال وختام الأعمار، ولنا في نبينا صلى الله عليه وسلم خير أسوة فقد أمره الله عز وجل بذلك بعد أن أتم لـــه النصر والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وتقدم به العمر صلوات الله وسلامه عليه، فكان يكثر من تسبيح الله عز وجل وحمده واستغفاره وذكره استجابة لأمر الله عز وجل لـــه في هذه السورة، وفي قولـــه ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾ [٣]. فكان أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[٤].

وإليك أخي الكريم هذه الفائدة في كيفية الاستعداد للقاء الله عز وجل:

---

(1) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٦٨٣/٧.

(2) سورة العنكبوت، آية: ٦٤.

(3) سورة الانشراح، الآيتان ٧، ٨.

(4) سبق تخريجه ص ١٩، ٢٣.

● فائـــــدة:

بم يكون الاستعداد للقاء الله؟

يكون الاستعداد للقاء الله عز وجل بأمور عدة من أهمها ما يلي:

الأمر الأول:

تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهي رأس الأمر كله، ومن أعظم ما يعين على ذلك ما يلي:

أ – التفكر في عظمة الله عز وجل، وما لـــه من صفات الكمال والجلال، مما جاء في الكتاب والسنة، ودلت عليه الآيات الكونية. قال عز وجل: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (1).

ب – التفكر في نعم الله عز وجل على العباد التي لا تحصى كما قال عز وجل: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (2)، وقال عز وجل: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ (3) وقد قال عز وجل ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (4).

ج – التفكر في حقارة الدنيا ودنو منزلتها وكيف وصفها الله في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار

(1) سورة الزمر، آية :٦٧.

(2) سورة إبراهيم، آية: ٣٤. وسورة النحل، آية: ١٨.

(3) سورة النحل، آية: ٥٣.

(4) سورة إبراهيم، آية: ٧.

نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ﴾ [١]، وقال تعالى: ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ [٤]، وقال تعالى: ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ [٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»[٦].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركه»[٧].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر

(1) سورة الحديد، آية: ٢٠.

(2) سورة العنكبوت، آية :٦٤.

(3) سورة آل عمران آية: ١٨٥، وسورة الحديد، آية: ٢٠

(4) سورة الرعد، آية: ٢٦.

(٥) سورة التوبة، آية: ٣٨.

(6) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحة، حديث: ٦٨٦، ٢٤٨٢، وانظر: «صحيح ابن ماجه» حديث ٣٣١٨.

(7) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩ وقال الترمذي «حديث حسن صحيح. وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس»، وصححه الألباني في الصحيحة حديث ٤٣٩، ٤٤٠. وانظر: «صحيح ابن ماجه» حديث ٣٣١٧.

يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[1].

ويا لله ما مدى بركة عمر من وفقه الله لهذا التصور، ثم أعطاه من العمر ما أعطاه، ويا لله ما أقل بركة عمر معمر غاب عنه هذا التصور، وعاش غافلاً لاهياً حتى فاجأه الأجل.

ولقد أحسن القائل [2].

فما نحن في دار المنى غير أننا شغفنا بدنيا تضمحل وتذهب

فحثوا مطايا الارتحال وشمروا إلى الله والدار التي ليس تخرب

د – التفكر في عظمة الآخرة وعلو مكانتها ورفعة منزلتها، وأنها دار القرار ودار الحياة الحقيقة، إما نعيم أبدي، نسأل الله من فضله، أو عذاب سرمدي، نسأل الله السلامة، كما قال عز وجل: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [3].

هـ – أن يتفكر الإنسان في ضعفه، فهو من أضعف المخلوقات، إن لم يكن أضعفها، وعمره بالنسبة لأعمار من سبق من الأمم لا يساوي شيئاً. قال صلى الله عليه وسلم: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من

(1) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

(2) هذان البيتان من قصيدة الشاعر ابن عثيمين مطلعها:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب

انظر «ديوان ابن عثيمين» ص٤٩٨، طبعة دار المعارف بمصر.

(3) سورة العنكبوت، آية: ٦٤.

يجوز ذلك»[1]. فيستمد قوته من القوي المتين سبحانه، ويستمد بركة العمر من الحي القيوم الذي لا يموت.

و – أن يكون فراق هذه الدنيا، والرحيل منها دائماً منه على بال، وأن يكثر من ذكر هادم اللذات (الموت) كما قال صلى الله عليه وسلم «أكثر من ذكر هادم اللذات»[2].

فمن وفقه الله عز وجل للتفكر في هذه الأشياء كان ذلك - بإذن الله عز وجل - من أكبر العون لـــه على تقوى الله.

فمن عظم الله عز وجل وقدره دعاه ذلك إلى الفرار إليه واللجوء إليه ومحبته وخوفه ورجائه، ومن تفكر في نعمه عز وجل على العباد دعاه ذلك إلى شكره، ومن تفكر في حقارة الدنيا دعاه ذلك إلى عدم الاغترار بها، ومن تفكر في عظمة الآخرة دعاه ذلك إلى الإقبال عليها والتزود لها، ومن تفكر في ضعفه دعاه ذلك إلى استمداد القوة من القوي المتين، ومن تفكر في قصر عمره دعاه ذلك إلى الحرص على استغلاله بالخير والعمل الصالح، ومن تذكر الموت والرحيل من هذه الدار دعاه ذلك إلى المبادرة بالعمل الصالح أيام الحياة،

(1) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٥٠، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب» وقال الألباني: «حسن صحيح». انظـــر: «الأحاديث الصحيحة» ٧٥٧ن «صحيح المشكاة» ٥٢٨٠، «صحيح سنن ابن ماجـــه» حديث ٣٤١٤.

(2) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٠٧، والنسائي في الجنائز ١٨٢٤، وابن ماجـــه في الزهـــد ٤٢٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حـــسن صـــحيح غريب»، وقال الألباني: «حسن صحيح». انظر: «تخريج المـــشكاة» حـــديث ١٦١٠، «إرواء الغليل» حديث ٦٨٢، «صحيح سنن ابن ماجه» حديث ٣٤٣٤.

والاستعداد للدار الآخرة.

الأمر الثاني[1]:

أداء ما عليه من حقوق لله تعالى، أو للخلق، والخروج منها كلها وبخاصة حقوق الخلق من الدماء والأعراض والأموال وغير ذلك، فإن حقوق الخلق مبنية على المشاحة، فأمك وأبوك وولدك كل منهم سيطالبك بحقه إن كان لـــه حق عندك ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [2].

بل إن العاقل اللبيب يحرص كل الحرص على عدم تحمل أي حق للخلق من الديون وغيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأن الإنسان لا يدري متى يفجأه الأجل، ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه، كما جاء في الحديث [3].

ومن صدق الثقة بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه أن يعفو الإنسان عما لـــه من حقوق عند الآخرين، من دم أو عرض أو مال ونحو ذلك ما أمكنه ذلك، قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [4].

وقال تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ [5] وقال تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا

(1) من الأمور التي يستعد بها للقاء الله والدار الآخرة.

(2) سورة عبس، الآيات: ٣٤ – ٣٧.

(3) أخرجه الترمذي في الجنائز ١٠٧٨، ١٠٧٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٤١٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني. انظر: «صحيح المشكاة» حـــديث ٢٩١٥، «صحيح سنن ابن ماجه» حديث ١٩٥٧.

(4) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(5) سورة البقرة، آية: ٢٣٧.

بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ [1].

فاحرص أخي المسلم بارك الله فيك على أن تقدم على ربك وليس لأحد من الخلق عليك حق ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وتأمل خطورة الأمر، وتذكر قول الناصح الأمين صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[2].

واحرص أخي المسلم على مسامحة إخوانك المسلمين والعفو عن هفواتهم وكن من الذين قال الله فيهم: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ [3].

نسأل الله الكريم من فضله. واحذر أن يكون في نفسك حقد أو عداوة أو ضغينة أو حسد لأحد من المسلمين، حتى وإن أساء إليك، واعلم أنه قل من يسلم من ذلك، واعلم أن هذا مركب صعب وعقبة كؤود وصدق الله العظيم: ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه

(1) سورة النحل، آية: ١٢٦.

(2) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤١٨ــ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣، ١٣٤.

وليّ حميم﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ [1]. نسأل الله الكريم من فضله.

واعلم أخي المسلم أنك لن تهدأ، ولن تنام قرير العين حتى تجعل العفو والتسامح ديدنك، وما إخالك ترضى بالدون، وأنت تجد ما هو أعظم وأوفى منه، فإن من كان شعاره العفو والتسامح فأجره على العفو الكريم، بلا حد ولا عد ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [2].

فعالج قلبك، والعاقبة للمتقين ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [3]، عسى أن تلقى الله وقد تخلصت مما عليك من الحقوق فلا أحد يطالبك بشيء، وعفوت عما لك من الحقوق فيكافئك عن ذلك صاحب العفو والفضل والإحسان بكرمه وجوده - وما أراك تعدل بهذا شيئاً - اللهم قنا شح أنفسنا وأعذنا من شرورها.

الأمر الثالث:

كتابة وصيته وما عليه من حقوق، قال تعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ [4].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما حق امرئ مسلم لـه شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة

(1) سورة فصلت، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

(2) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(3) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ ــ ٨٩.

(4) سورة البقرة، آية: ١٨٠.

عنده»[١].

والوصية واجبة بالاتفاق إذا كان الإنسان عليه أو لـــه حقوق يجب بيانها وكتابتها كأن يكون عليه ديون للناس أو لـــه عليهم ديون، ليؤدى ما عليه من حقوق من تركته، ولأن الحقوق التي لـــه على الناس تعد من تركته.

وجمهور العلماء على أنها مستحبة إذا لم يكن عليه حقوق يجب بيانها فيستحب أن يوصي بشيء من ماله للفقراء والمساكين من غير الوارثين. قالوا: لأن وجوب الوصية منسوخ بآيات المواريث.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنها واجبة قالوا: لأن آيات المواريث إنما هي مخصصة لآية الوصية خصصتها في الأقربين غير الوارثين. فالميراث للوالدين والأقربين الوارثين، والوصية لغير الوارثين.

ومما ينبغي أن يعلم من أحكام الوصية أمران وهما من الأهمية بمكان؛

- الأول: مقدارها.

اعلم أخي المسلم - بارك الله فيك - أن الوصية جائزة في الثلث [٢] وما دونه لقولـــه صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «الثلث والثلث كثير»[٣].

---

(1) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٣٨، ومسلم في الوصية ١٦٢٧، وأبو داود في الوصـــايا ٢١١٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٥، والترمذي في الجنائز ٩٧٤، وابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٩.

(2) انظر «الإجماع لابن المنذر» ص٨١، «الإفصاح» ٢/٧٠، «المحـــرر الـــوجيز» ٤/٣٩، «المغني» ٨/٣٩٥.

(3) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨، وأبو داود في الوصـــايا ٢٨٦٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٢٦، والترمذي في الوصايا ٢١١٦ من حديث سعد بن =

والأفضل أن تكون في الخمس، كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته أوصى بالخمس وقال: ((رضيت لنفسي بما رضي الله به لنفسه))[1] يعني في قولـــه تعالى: ﴿واعلموا أنَّما غنمتم من شيء فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ [2].

وعامة الفقهاء على أن الأولى الوصية بالخمس، كما هو فعل أبي بكر رضي الله عنه، وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم - وإن أجاز لسعد الوصية بالثلث - قال: ((والثلث كثير))[3].

والعجيب أن كثيراً من الناس يعتقدون أن الوصية لابد أن تكون بالثلث، وذلك أمر مشتهر بين عامة الناس من المنتسبين إلى العلم والعوام، ينقله الخلف عن وصايا السلف، وما أدري أين طلبة العلم وأهل المنابر عن هذا.

= أبي وقاص رضي الله عنه قال: «عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت. فقلت يا رسول الله بلغني ما ترى من الوجع وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة واحدة أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. قلت أفأتصدق بشطره؟ قال: لا. الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم يتكففون الناس».

(١) أخرجه عبد الرزاق في الوصايا ـــ «المصنف» ٦٦/٩،الأثران ١٦٣٦٣، ١٦٣٦٤، وابن أبي شيبة في الوصايا ـــ «المصنف» ٢٠٠/١١ ـــ الأثر ١٠٩٦٥، والبيهقي في الوصايا ـــ «سنن البيهقي» ٢٧٠/٦.

(2) سورة الأنفال، آية: ٤١.

(3) انظر «لمصنف» لعبد الرزاق ٦٦/٩ ـــ ٦٧، «المصنف» لابـــن أبي شـــيبة ٢١٠/١١ ـــ ٢٠٢، «سنن البيهقي» ٢٧٠/٦.

«أحكام القرآن» للهراسي ٣٧٠/١، «الكشاف» ٢٥٠/١، «المحـــرر الـــوجيز» ٩٣/٤، «تفسير ابن كثير» ١٩٢/٢، «العذب الفائض» ١٨٢/٢.

■ الأمر الثاني: مصرفها:

اعلم أخي - بارك الله فيك - أن الوصية ينبغي أن توجه للأفضل من أعمال البر، وأن تكون مطلقة في وجوه البر كلها يُقدّم الأهم فالأهم، ويترك ذلك للناظر على الوصية.

والعجيب في هذا الأمر: أن كثيراً من الوصايا في السابق مقيدة في جهات - هي بلا شك من البر - لكن نفعها وفضلها أقل، كأن تكون مقيدة في حجة أو أُضحية أو عشاء في رمضان، وهذه وإن كانت من وجوه البر فهناك ما هو أولى منها وأهم كبناء المساجد وتعليم القرآن الكريم ومساعدة الفقراء والمساكين.

وإنني أقول بهذه المناسبة: يجب على طلبة العلم والمحاضرين والخطباء تنبيه الناس إلى هذه الأحكام وأمثالها التي تخفى على الكثيرين وهي من مهمات أمور الدين. وفق الله الجميع لكل خير.

وأخيراً، وعوداً على بدء أقول: إن من الاستعداد للقاء الله والدار الآخرة - مع ما سبق ذكره - أن يكون الإنسان كلما تقدم به العمر أكثر تنظيماً لأحواله وتفرغاً لعبادة ربه، فإن الله عز وجل في هذه السورة العظيمة سورة النصر آذن رسوله صلى الله عليه وسلم بقرب وفاته، وبانتهاء مهمته في هذه الحياة، وأمره بالتوجه إلى الله والتفرغ لتسبيح الله وحمده واستغفاره، كما قال تعالى في سورة الانشراح: ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾ (1).

ولن يتيسر ذلك للإنسان إلا إذا اكتفى من التعلق بالدنيا بما تدعو الحاجة إليه، وهو نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا

(1) سورة الانشراح، الآيتان: ٧، ٨.

تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [1].

وأنت أخي المسلم أحد رجلين: إما منعّم موسع عليه في رزقه، وإما مبتلى مضيّق عليه في ذلك - كما ذكر الله عز وجل[2]، فإن كنت ممن ابتلي بضيق الحال، وقلة ذات اليد، وتحتاج إلى الكد والعمل الساعات الطويلة للسعي في طلب الرزق، لإعفاف نفسك وأهل بيتك، مما لا تستطيع معه التفرغ للعبادة فالزم أداء الفرائض واجتناب النواهي مع القيام بما قدرت عليه من النوافل، وأبشر بالخير فإنك مثاب مأجور على طلب الرزق لإعفاف نفسك بإذن الله عز وجل فإن السعي لطلب الرزق من طاعة الله تعالى وعبادته.

فإن الإنسان يؤجر حتى على ما يجعل في في امرأته[3].

وإن كنت ممن نعمّه الله ووسع له في رزقه فاحذر أن تبطرك النعمة وتلهيك الدنيا عن طاعة الله عز وجل، وفرغ نفسك بعض الوقت لعبادة ربك والاستزادة من نوافل العبادة، واحرص على ذلك كلما تقدم بك العمر، وخذ أكبر نصيب من ربك، واحفظ دينك، وقدم مالك وقاية لدينك، فإن كان لك أموال تشغلك إدارتها، من تجارة، أو زراعة، أو صناعة، أو غير ذلك فشجع أولادك على مساعدتك، بل وعلى النيابة عنك لتتفرغ لما هو أهم وهو عبادة

---

(1) سورة القصص، آية: ٧٧.

(2) في قوله تعالى ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ۞ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ سورة الفجر، الآيتان: ١٥ ــ ١٦.

(3) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لـــه: «وإنك لن تنفق نفقه تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك» أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨.

ربك، ولا تبخل على أولادك في هذا ولوشاطرتهم بعض مالك، فالمال إن بخلت به عنهم شغلك عن طاعة الله حتى آخر لحظة من عمرك، ثم تركته وانتقل بعدك إليهم، بل لا تبخل بمالك على من تقيمه يدير أعمالك وإن لم يكن من أولادك مادام أنه يكفيك إدارة تلك الأموال لتتفرغ لعبادة ربك بقلب حاضر خاشع منيب.

واعلم أن الدنيا بما فيها لا قيمة لها إذا ضيعت نصيبك من ربك، والله المستعان.

وختاماً أقول: أخي المسلم تذكر أن المفازة بعيدة، وأن السفر شاق وأن العقبة كؤود فأعد للأمر عدته.

بكى أبو هريرة رضي الله عنه لما حضرته الوفاة، ثم قال رضي الله عنه: «والله ما أبكي على دنياكم هذه، وإنما أبكي على طول سفري وقلة زادي»[1].

وبكى معاذ بن جبل رضي الله عنه عند وفاته، فقيل لـــه: ما يبكيك؟ فقال رضي الله عنه: «أبكي إذا صلى المصلون ولست فيهم، وإذا صام الصائمون ولست فيهم وإذا ذكر الذاكرون ولست فيهم».

وإن مما يثير العجب أن الواحد منا إذا أراد سفراً من الأسفار من بلد إلى بلد آخر كالسفر للحج أو العمرة أو غير ذلك يعد للأمر عدته ويتجهز لذلك بإعداد الزاد والمزاد والراحلة واختيار الرفقة، ويتفقد السيارة ومحركاتها وعجلاتها ونحو ذلك.

بل إن بعض الناس إذا هم بسفر من الأسفار ظل طول ليله يدخل ويخرج، يرقب الصباح، ولم تذق عينه غمضاً اهتماماً وتحفزاً لهذا السفر - فأين هذا السفر من السفر للقاء الله والدار الآخرة؟

(1) انظر «سير أعلام النبلاء» ٢/٤٠.

اللهم ألهمنا رشدنا ووفقنا للاستعداد لما أمامنا، ووفقنا للإخلاص والسداد في القول والعمل، ولا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المراجع

١- الإجماع لابن المنذر م ٣١٨هـ، تحقيق أبي حماد صغير أحمد - الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢- أحكام القرآن للهراسي م ٥٠٤هـ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم م ٣٢٧هـ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م مكتبة نزار مصطفى الباز مكة - الرياض.

٤- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير م ٧٧٤ هـ، طبعة دار الشعب، مصر.

٥- تيسير الكريم الرحمن للسعدي م ١٣٧٦هـ تحقيق محمد زهدي النجار، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري م ٣١٠هـ تحقيق شاكر طبعة المعارف، والطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٧- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م ٦٧١هـ طبعة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

٨- سنن ابن ماجه م ٢٧٥هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طبعة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي.

٩- سنن أبي داود م ٢٧٥هـ تعليق عزت الدعاس، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

١٠- سنن ا لبيهقي م ٤٥٨هـ دار الفكر بيروت.

١١- سنن الترمذي م ٢٧٩هـ تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي - المكتبة الإسلامية.

١٢- سنن النسائي م ٣٠٣هـ.
١٣- سير أعلام النبلاء للذهبي م ٧٤٨هـ، الطبعة العاشرة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، مؤسسة الرسالة.
١٤- صحيح البخاري مع فتح الباري تصحيح وتحقيق بإشراف الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
١٥- صحيح مسلم م ٢٦١هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار الفكر العربي بيروت.
١٦- الكشاف للزمخشري م ٥٣٨هـ - دار المعرفة بيروت.
١٧- لسان العرب لابن منظور م ٧٢١هـ - دار صادر بيروت.
١٨-مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
١٩- المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي م ٥٤٦هـ تحقيق المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
٢٠- مسند الإمام أحمد م ٢٤٢هـ، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، المكتب الإسلامي بيروت، والطبعة الرابعة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف بمصر.
٢١- المصنف - لابن أبي شيبة م ٢٣٥هـ طبعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م - الدار السلفية.
٢٢- المصنف - لعبد الرزاق م ٢١١هـ، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي.

فهرس الموضوعات

مقدمـــة ١٣
سورة النصر، وتسمى سورة « التوديع » ١٥
وقت نزولها: ١٥
موضوعها: ١٦
معاني المفردات والجمل: ١٨
الفوائد والأحكام: ٢٥
فائـــــدة: ٣٠
الأمر الأول: ٣٠
الأمر الثاني: ٣٤
الأمر الثالث: ٣٦
ثبت المراجع ٤٣
فهرس الموضوعات ٤٥